الفصل الثامن والعشرون

طلب عمل

-أنت تعلمين صعوبة الحصول على عمل. ليس لدي شاغر ولكـن من أجل عينيك سأجد لك وظيفة.

سألته مها بلهجة باردة:

-مادخل عيني بالعمل؟

-لأن عينيك جميلتان. أنظري في عيني لأرى تماما مالونهما. ألـم يخبرك أحد أن عينيك محيرتان؟

-هكذا اذن! أنا أرتيست في نظرك؟ أحمل اليك قدرتي وكفاءتي على العمل والسنوات الطويلة التي أمضيتها في الدرس فلا تجد في كل هذا الاّ عينين جميلتين؟

وارتبك وهو يعبث بقلمه، وقال دون أن يرفع رأسه.

-كنت أظن أنك..

-أنني ماذا؟

-أنك متحررة. كنت أعرض عليك صداقتي.

-صداقتك! أنت تفرضها علي مقابل حاجتي للعمـل؟ هـل تـستغل وظيفتك بهذه الطريقة مع كل النساء؟ منذ متى أعرفك؟

-ظننت أنك جريئة على نبذ العادات البالية.

وثار غضب مها وتضرجت عيناها. كانت تحس بالإهانة أنها بحاجة الى تزكية مثل هذا الوغد كي تعمل وتطعم طفلها، وعصر القهر قلبهـا وارتفع ليضغط رقبتها كأنما أصابع غير منظورة تخنقها.

-ماالذي جعلك تظن ذلك؟ هل جرأتك على شيء بكلمة مني أو نظرة أو تصرف؟

-كلا ، ولكنك إشتراكية.

وجمدت مها. لقد أذهلها تخلفه ووقاحته. انه لايدري في الواقع مـا يقول. رجل يشعر بسحر السلطة في يده التي تفتح أمامه كـل الحـدود.. الإشتراكية في تصوره رديف للإباحية! هذا مايفهمه من الإشتراكية التي تعلمها! لايفهم أنها حرية المرأة في أن تعمل وتشارك فـي المـسؤولية الإجتماعية ولا ترضى أن تكون عالة على رجل حتى لو كان زوجها. لا يفهم في أن تكون مخلصة لمبدئها، صادقة مع نفسها وترفض كل نفـاق. أرادت أن تصفعه ولكنها فضلت أن تلقنه درسا وهي متمالكة الأعصاب.

-الإشتراكية ياسيد تعلمنا الحب الحقيقي لا الإباحية. وتطهر المجتمع من الحثالات الذين تأبى مصالحهم الاّ أن يجعلوا من المرأة مجرد دميـة يلهون بها. أنا زوجة وأم!.

وضحك ضحكة مقتضبة، كأنما الأمر يسهل مع الزوجة دون الفتاة.

-ولكن زوجك غائب كما أعلم. ألا تؤمنين بحاجة الجسد؟

-أومن بالحب وأقدس العائلة وأنتظر زوجي حتى يعود!.

كانت عيناها تخترق عينيه وتتحداهما، وشعر بنفسه صـغيرا، فلـم يتمالك أن أغضى الطرف متعثرا في إثمه، ولكنه كـان مـن اللجاجـة والوقاحة بحيث استمر في محاولاته بلهجة خبيثة يريد أن يوهم بها أنـه أكثر خبرة وفهما بطبيعة النساء من أن تخدعه براءتهن.

-أنت من النوع العتيق. تخافين كسر القيـود. لافائـدة! ان النـساء جبانات أكثر منهن طاهرات، لا الإشتراكية ولا غيرها تحـررهن مـن انكماشهن. لست بحاجة لتنكري الحقيقة بكلمات مزخرفـة عـن الحـب وتقديس العائلة. انني أفهمكن.

لقد تملك مها شعور بالتقزز كأنها أمام دودة لزجة تدور على نفـسها محاولة القفز اليها.

-لن أقول بأنك وغد، ولكنك مغفل، أقول هذا لأنك قـروي، فأنـت كالشرقي الساذج الذي يذهب الى باريس، ويظن أن فتياتها جميعا غيـر عذراوات. ان ابن المدينة أخبث منك ولكنه أكثر لباقة. على الأقل تمنعه كياسته أن يطالب بأجره مقدما. أنت تحتاج لتصحيح مفاهيمك عن المرأة ياسيد!..

كانت عيناها ساخرتين ولهجتها هادئة ليس فيها ضغن، وذكر الشاب ماقاله له أحد أصدقائه بأنه ليس هناك من عذارى في المدينة، وأنهن في ليلة العرس يذهبن الى قابلات يجرين لهن عمليات خاصة لخداع الزوج. فاذا كان الأمر بالنسبة لفتاة هكذا فهو بالنسبة لامرأة أسهل. قال له صديقه بأنه يجب عليه أن يشد قلبه في معاملتهن ولا يقنط، وحاول مرة أخـرى أن يتغلب على خجله، ومسح العرق الذي تصبب من جبينه لمـا يـشعر بالحرج ولكنه عجز. لابد أن صديقه خدعه، وأنه يعمم آراءه حيث كـان عليه أن يميز ويحترس. وقال متداركا فشله:

-أرجو أن لاتحقدي علي.

-لست أحقد، ولكنني أرجو أن تكون أكثر رصانة حين تعامل امرأة إشتراكية مرة أخرى.

وسألها مجاملا متوقعا الرفض:

-هل تقبلين بالعمل هنا بعد ما جرى؟

-طبعا أقبل لترى بأن أمثالك لايخيفونني. انني إمرأة أعرف ما أريد وما لاأريد، ولا أحد بقادر أن يقسرني على شيء.

وأحرج مرة أخرى، ليتها رفضت العمل فحفظ ماء وجهه. ليس لديه شاغر. ان النساء لغز لايمكن فهمه، وارتبك وهو يقول:

-عودي بعد أسبوع، ربما أحدثت شعبا جديدة ان ساعدتني الميزانية. أو اتركي لي نمرة تلفونك فانني أتصل بك.

ولم يزعج مها الأمر. انها تفضل التعامل مع رجل يـشعر نحوهـا بالذنب، ولم تشأ أن تتركه دون أن تخجله:

-ليس لديك شاغر اذن وتستغل ظروفي ووظيفتك التي ائتمنك عليها الشعب.. انه أمر مخجل!

أخذ يبرر نفسه، ويلقي اللوم على المـرأة التـي تتجمـل وتعـري ذراعيها، وأن الرجل يؤخذ بالظواهر ولا يستطيع أن يـسبر الأعمـاق. وتساءل:

-لماذا تفعل المرأة ذلك ان كانت في أعماقها محافظة؟

-حتى تعلم عيني الرجل حب الجمال، حتى تطهر أخلاقه.. وحتـى يعرف أن عفة المرأة ليست في حجاب ولكنها في متانة الأخـلاق التـي يوحي بها الصدق مع النفس، وفي العمل الخلاق.

المرأة تعاني في سبيل الحرية الوحيدة التي تجعلها حرة، وهي العمل الخلاق ولن يفهمها الرجل أبدا!.

"يبدو أن أكثر الرجال لايملكون الكفاءة لفهم الحب كما تفهمه المرأة" هكذا كانت مها تفكر وهي واقفة في الباص في الزحام ويد رجل خلفها تتحسس يدها وهي ترتجف. وشذرته بنظرة غاضبة وتقدمت الـى أمـام. كانـت تتأرجح في مكانها ولا أحد يملك تلك الشهامة القديمة ليخلي لها، أو حتى لتلك المرأة الحامل المنتقبة التي وقفت خلفها, مكانا. وفجأة سمعت صراخ المرأة.

-يبعت لك حمى انشاء الله!

والتفتت مها وفهمت، وتملكتها الرغبة في الـضحك حـين سـرى التهامس وتمتمات الإستفهام.

-يبعت له مصيبة قرصني!.

لماذا لايخطر أبدا ببال امرأة أن تقرص رجلا؟ انه يرغب، يـشتهي، وهي تحب. انها اما أن تحب أو تكون أداة. ولهذا لايفهم الرجل المـرأة ولا تفهم المرأة الرجل.

الحب عنده ثورة بيولوجية منفصمة عـن الـذات، منفـصمة عـن الموضوع. والحب عندها شيء معقد متلاحم مع الـذات، مـتلاحم مـع موضوع الحب، إنسجام كلي في أعماقها يوقد الرغبة، ورغبة هي تعبير جسدي لقلب مترع بأشواق مبهمة لرجل يملؤها إعجابا ويملؤهـا فخـرا وكبرياء. انها تريد بكل قوتها أن تكرره في رحمها طفلا فتشعر أنها أدت واجبها للحياة. وهي قربه امتنان ورضى صامتان يبدلان الكلمات العاجزة بلهب الشعور.

كيف لم يفهمها أحمد؟ كيف لم يدرك أنها تهبه قلبا ولا تمنحه رغبة. ان كل أخطاء الرجل تنبع من هذا الظن. أوقع نفسه في ورطة هو فـي غنى عنها، والأمور تأزم يوما بعد يوم في ظل الإرهاب الأسـود الـذي يخيم بجناحيه فوقهما. أصبح حبهما مخدر نسيان مؤقـت للجـو الثقيـل الرازح فوق صدريهما معا. كيف يتقيان السلطة الدكتاتورية التي تنـشب أظافرها لتمزيق حياتيهما، وكيف يعيشان ومن أي مورد، والأبواب تـسد في وجهيهما؟ هو يتهمها وهي تتهمه في أعماق أعماقهما حتـى دون أن ينبسا ببنت شفة. انها تدرك حينا أنه على حق، فحركتها تعيـق حركتـه وتفسدها، ولو أنها بقيت سلبية كامنة في الظلال لوفّرت على نفسها عبء

البحث عن عمل، وعنه هم التفكير في ما قد تتعرض له مـن مخـاطر. وكان أشد ما يعذبها ويملأ قلبها تعاسة أن يبلغ به اليأس مبلغه فيسلم نفسه ولا تكون مبرأة أمام ضميرها في أنها ساهمت بذلك بحماقتهـا. ولكنهـا لاتلبث أن تلقي باللوم عليه في أنه لايثق بها الثقـة الكافيـة، ولا يـؤمن بقدرتها على التصرف. لو أنه كان يحبها أقل ويثق بهـا أكثـر! كانـت رواسبه النفسية أعمق من أن يستطيع فكره التقدمي التغلب عليها. وتثور على هذا النضال السلبي المقيد المخنوق، وكأن الانسان فيه طائرة ورقية تحسب نفسها منطلقة في الفضاء الرحب وهي مشدودة بخيوطهـا الـى أصابع صبي يعبث بها. لامكان لها في هذا المجتمـع، لامجـال رحبـا لطموحها، وليس باب العمل وحده مسدودا في وجهها، بل باب الكلمـة، حتى لو بقيت في ذلك المجال الضيق الذي لايمس القضايا الشائكة مـن قريب أو بعيد. وكان أحمد ينظر اليها منكبة على ورقهـا مغيظـا نافـذ الصبر:

-قلت لك لافائدة، لن ينشر لك كلمة مما تكتبين.

-قد أجد مجلة حرة، هنا أو في بيروت.

-ليس من مجلة حرة، ألم تدركي بعد أن كل مجلة مرتبطة بجهة من الجهات؟ المجلة الحرة التي لاتدعمها جهة معينة تموت وهي بـرعم. ألا تدركين أن الأنظمة التي تخنق الأحرار تخنق المجلات الحرة والكلمـات الحرة؟

ولكن مها لم تكن تريد أن تيأس قبل أن تجرب بنفسها الواقع الألـيم، وتجد أن فشلها يتكرر مرة بعد أخرى كأنما هناك مؤامرة ضمنية علـى إطفائها.

وكفت بعد بضع محاولات. وأخذت تفكر بمجال جديد. لايمكنهـا أن تعيش على الإحسان طويلا. ان حياة تضع في يدها مرة بعد أخرى مبلغا من المال مما يتوفر لديها والديون تتراكم. فكرت في العمل اليـدوي، أن تستفيد من آلة الخياطة التي لديها والتي تقوم بها في المهمات التوفيريـة للبيت. ولكن معنى هذا أن عليها أن تفتح بيتها للزبونات وهذا مـستحيل في وضعها فضلا على أن هذا يحتاج الى مبلغ معين لاتملكه كأن تقتنـي آلة للحبك والى خبرة وتدريب فترة زمنية لاتدري مداها وهذا لايناسبها.

فكرت في خياطة ثياب جاهزة، آلة حبك وبـضعة جرنـالات فيهـا خرائط قص تكفي لبداية المشروع. ولكن المشكلة كانت فـي تـسويقها. وتحمست للخاطر، ولكن أحمد هز راسه قائلا:

-ستعملين فقط لتزيدي ثراء تاجر العرض أيتها المسكينة. ألا تدركين أن هذا المجتمع ليس للذين يعملون ولكن للوسطاء فقط؟

ولكن مها لم تكن لتصدق أن الاستغلال بمثل البشاعة التي صـورها أحمد حتى على النطاق الحرفي. كانت مبتدئة ولكنها متقنة لعملها، فنانـة بطبعها. وبعد شهر من الجد والإجتهاد والنرفزة الصامتة وضيق الصدر وورم القلب أنجزت أثوابا أربعة عرضتها على جارة لها هي زوجة تاجر وخياط للثياب الجاهزة.

قالت لها المرأة التي ترفل بالشحم:

-والله أبو زياد لايشتري جاهزا، ولكنه يقص القماش ويـسلمه الـى خياطات بالأجرة. ولما استفهمت كم يؤجر الخائطة فهمت أنه يدفع فـي كل ثوب خمس ليرات.

وانكمشت مها، ولكنها لم تستسلم سريعا، حاولت الاقناع بالمـصلحة المشتركة.

-شاهدت ثوبا من مثل هذا القماش، ومثل هذا الموديـل يبـاع فـي الصالحية بمائة وخمسين ليرة. كلفني القماش ثلاثين ليرة، فليكن الـربح مناصفة بين العمل والعرض.. ان عملي متقن وهو يكلفني وقتا.

كان زوج المرأة في البيت فدخلت تعرض عليه الأمر، ولما خرجت لمحت مها في وجهها الحيرة والأسف، فاذا كان هناك من يخـيط لهـم بسعر رخيص فما يدفعهم للسخاء بثمن غال في عمل متقن؟ ولكن الرفض لم يخل من اللباقة التي تميز تجار دمشق:

-ان عملك متقن فلعله يروج عند تجار الصالحية، أما نحن فزبائننـا من متوسطي الحال ولا يروج لدينا، ولا نجد من يشتريه فـي محيطنـا. لاتقطعي الأمل!

كان أحمد يتميز غيظا حين عادت مها بالفشل الجديد:

-قلت لك لافائدة. كفي عن ضرب رأسك بالصخر. الموت أفضل من أن أراك تلجئك الحاجة الى الأبقار الأمية. لماذا يتعلم الناس؟ لماذا يفنون حياتهم في الدرس والجامعات اذا كان هذا مصيرهم؟ هذا المجتمع لـيس لنا، لم يفصل على مقاسنا، انه مجتمع الدكنجيـة والتجـار. هـم الـذين يحكمونك، هم حكامك. ان أبناءهم في الجيش ضباطا، وبين المثقفين منهم وزراء وأطباء وأساتذة جامعات ومهندسين. كلهم يريدون تأبيـد مجتمـع الحرفيين والدكنجية والتجار؛ ولهذا يهللون لهذا الحكم ويـصفقون، لقـد رفعهم الى مرتبة السادة هؤلاء اللا منتمين. من يفكر بالتقدم؟ من يفكـر بالتصنيع؟ من يفكر في تشغيل ألوف الأيدي العاطلة عن العمل؟ من يفكر بالتحرير؟ التقدمي ينحر على مذبح هؤلاء، يشربون دمـه.. لـيس لـه جماهير تحميه. يقولون حبل الكذب قصير. ما أحمق هذا المثل! ان هذا الحبل هو الوحيد الذي لاينقطع منذ الأزل. لاتقضي الحقيقة علـى كذبـة

حتى تبرز غيرها. لم يكن أبدا للشرفاء مثل هذه الجماهير التـي تـصفق للدجل..

بقيت مها صامتة حتى لاتنكأ مواجعه وتزيد في تأجج ثورته. لكـل ساعات ضعفه، وساعات يأسه، وساعات وحدته.. ليس لها الاّ أن تصبر على الحرمان، وتخفف وطأة المخاوف واليأس بوهج الحب. وأصـبحت نشوتهما كمدمن الخمر، نسيان متواصل للدارة الجهنمية التي يتقلبان فيها. شتان بينها وبين العاطفة القديمة التي تنمو مع الأمل والتفاؤل بالمـستقبل حين كان كل انتصار تقدمي في مجال مـن المجـالات يـنعكس علـى وجودهما نشوة وفرحا ورضى وايمان راسخ بالجماهير. كانت عنـاوين الصحف تبشر بغد نير في سوريا التقدمية ذات الأربعة ملايين نسمة التي تدهش العالم بمقاومتها لكل أنواع الإستعمار.

-اليوم نهزم أحزاب الرجعية والخيانة.

-اليوم نحاكم قتلة المالكي.

-اليوم نصفع مؤامرة العجلاني

-اليوم نسحق مؤامرات دالاس.

-اليوم نحقق اتفاقية المشاريع الصناعية.

-اليوم ننشئ سد الرستن، وغدا ننشئ سد الفرات.

كان الغد جميلا مشرقا مفعما بالإزدهار والبحبوحة لكل الناس. فماذا حدث حتى قلبت الكفة فرجحت أحزاب الرجعية والخيانة لتساعد الحكـم القمعي، فهدمت المشاريع ولوحق كل وطنـي وتقـدمي باسـم معاداتـه للوحدة؟

كانت تضغط أحمد الى صدرها بذلك الشعور الفاجع لامرأة توشك أن تفقد سعادتها. لاتدري في أية لحظة يخطفـه منهـا غربـان المباحـث

المتربصة. وتتحول النشوة في عينيها دموعا تنسكب في العتمة. لو مست شعرة من رأسه فهي لاتدري ماذا يصيبها، أتراها تجن، أم تراها تنـدفع الى عمل يائس؟

كانت عزلتها قاهرة، فلو أنها تستطيع أن تتصل بمن يعـانين مثلمـا تعاني لخفف الإحساس الجماعي قلقها وغربتها وكربها، ووجدت فيه قوة دافعة، بدل تلك الأنشوطة التي تتراوح فيها مهيضة الجناح. ولكن الناس لم يعودوا يتواصلون خوف أن تفلت ألسنتهم بكلام يكلفهـم غاليـا علـى مسمع آذان غير أمينة، واذا رأى أحدهم الآخر في الطريق أطرق كأنـه لايراه حذر أن يقحم في أمر لايعنيه من قريب أو بعيد.. وتحولت القلوب فلا يدري أحد من بقي على العهد ومن خانه، فسلب كل فرد الثقة بأخيـه وصاحبه، واختنقت الشكوى في الصدور، واعترت الوجوه مـسحة مـن الغم؛ الا الذين كان العهد لهم، وكانوا يحسنون الرقص أكان الطبال مـن الغرب أو الشرق. وكانت عملية الشد والجذب تلك سبيلا لجمع الثروات، وقيام عصابات من المرتزقة والانتهازيين.

* * *